

الاستغراب وهوية الوجود

م.م. ياسين احمد صالح الدليمي

جامعة تكريت / كلية الآداب / قسم التاريخ

مُتَكَلِّمًا

الحمد لله حق حمده والصلاة والسلام على من لا نبي من بعده وعلى اله وصحبه وجنده ... وبعد:

جاء مفهوم الاستغراب باساليب وصور متباينة وربما متناقضة في اقل وصف لها ... واثيرت حوله الشكوك والاقاويل عن جدوى استثماره لصالح ابناء العروبة والاسلام، وكيفية الولوج به الى مداخل الشخصية العربية ليكون عاملا مساعدا في الازدهار المعرفي والتمدن الثقافي ضمن حدود القيم والتقاليد العربية الاسلامية وقبل الحكم المسبق على سلبيات وإيجابيات الاستغراب علينا إن نعرف: ماهو الاستغراب لغة واصطلاحاً؟ وكيف نشأ؟ وهل له هوية وجود تؤهله لاداء دورا فاعلا في المجتمعات العربية؟

هناك اجابات عن تلك الاسئلة وعن مسائل اخرى في ضوء بحثنا المتواضع

هذا... والله من وراء القصد

أولاً. الاستغراب لغة وأصلاً

الاستغراب لغة:

جاء في قوله تعالى: جَاءَ بَ بَ بَ بَ بَ بَ بَ (١) فالغرب خلاف الشرق وهو المغرب، فاحد المغربين اقصى ماتنتهي اليه الشمس في الصيف والآخر اقصى ماتنتهي اليه في الشتاء (٢)... والغروب غيوب الشمس غربت الشمس تغرب غروباً ومغرباناً غابت في المغرب وكذلك غرب النجم، والمغرب الذي ياخذ ناحية المغرب (٣)... وغرب القوم: ذهبوا في المغرب ويقال غرب في الارض وأغرب ان امعن فيها (٤)... وأستغرب في الشيء اكثر منه واستغرب الدمع سال (٥) وأغرب الرجل جاء بشيء غريب واغرب عليه واغرب به صنع به صنعا قبيحا (٦) والاستغراب في احد معانيه من جاء بشيء غريب غير مالوف في بيئة الشرق.

الاستغراب اصطلاً

يمكن تعريف الاستغراب موجزاً بأنه العلم الذي يهتم بدراسة الغرب (اوربا - امريكا) من جميع النواحي العقدية والتشريعية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية والسياسية والعلمية والثقافية والبيئية... الخ (٧)... ولا يمكن القول ان الاستغراب هو المقابل المضاد للاستغراب لاسباب ايدلوجية وموضوعية الا من ناحية المظهر في ان الاخير يعني بدراسة حضارات الشرق في حين حاول الاستغراب الاهتمام بالحضارات الغربية ودراستها ما أستطاع الى ذلك.

ثانياً. ماهية الاستغراب

لم يصبح الاستغراب علماً مستقلاً له اسس ومؤسسات بعد بل ظل اسيراً لمعاهد الغرب الفكرية ومؤسساته العلمية التي ادعت لنفسها مهمة احتكار وتصحيح

العرب ما يناسبهم من سبل الحضارة والمدنية من هذه الشعوب والامم^(١٤) وابتكروا الكثير من الصناعات والنظم وطوروا اخرى. لقد اثبت العرب المسلمين في كتب الرحلات ودراساتهم المعمقة للشعوب الاخرى وسجلوا انطباعاتهم الممنهجة كما هو الحال مع المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)^(١٥) وابي الريحان البيروني (ت ٤٤٠ هـ)^(١٦) والادريسي (ت ٥٨٨ هـ)^(١٧) وياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ)^(١٨) وسواهم كثير ... غير ان حقبة الاستعمار الحديث وما سبقها من حقبة الحروب الصليبية وحروب المغول وموجات الاحتلال الاخرى اجهضت محاولات الاستغراب وما بقى منها على قيد الحياة كانت تجرى في ظروف بالغة الصعوبة والتعقيد. وهي تجسيد حي لمظاهر الاستعمار الحديث في سلب الاخرين تطلعاتهم ومصادرة عقولهم عدا تلك التي تقولبت بقالب الغرب وانصاعت لمطالبه بل املائاته.

٢- هوية الاستغراب:

الاستغراب لم يكن ردة فعل للاستشراق كما يعتقد البعض^(١٩)، لان الاخير جاء لاسباب ودواع مختلفة لكنها مؤدجلة في عمومها، هي نتيجة حتمية لتفوق الشرق التاريخي حضارياً وثقافياً، وكانت مراحل الاستشراق الاولى قبل حقبة الحروب الصليبية واثاءها^(٢٠)، فحاجة الغرب الى الشرق لم تنته بمجرد هزيمتهم في تلك الحروب بل على العكس زادت هذه الهزيمة اصراراً على اجتياح الارض العربية بكل الوسائل المتاحة، بعد ان سلمت الامة العربية مقاليد امورها ومفاتيح تفوقها الى الاغراب^(٢١)، عندها اصبحت هزيمتها حتمية، وهو ما حصل فعلاً بعد سقوط الخلافة في بغداد علي يد المغول سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨م^(٢٢) ... اذ لاقت من الخطوب الجسيمة والاهوال الخطيرة مالاقت، انعكس هذا بشكل لاقت على احوالها العامة، التي كان منها التشرذم والضياع والانقياد خلف من كان مبهوراً بعطائها ونتاجها القيمي والمعرفي على ان ذروة الماساة وصلتها في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات قرن

العشرين بعد انهيار الدولة العثمانية ابان الحرب العالمية الاولى (١٩١٤م - ١٩١٨م)^(٢٣) اذ ان الاجتياح الاخير في مطلع القرن العشرين لم يكن الاول من نوعه من قبل الغرب بل سبق ذلك الغزو الفرنسي لمصر بقيادة نابليون بونابرت (١٧٦٩م - ١٨٢١م)^(٢٤) الذي جلب معه بعض المفكرين والمتقنين الفرنسيين لمصلحة الغزو، وليس لشيء اخر، فامتدت ايد هؤلاء الغزاة الى ذلك الصيد المتميز من الحضارة المصرية العريقة، بالتحليل والتحميص والمقارنة والاكتشاف والتتقيب.

ان الفكر الغربي كان منصبا على كيفية السيطرة غير المباشرة على مقدرات الوطن العربي في ظل الغياب القسري عن المنطقة بعد هيمنتهم عليها بعد الحرب العالمية الاولى او اثنائها ولكن ثورات التحرير العربية فاجتئتهم ما بين الحربين العالميتين، واثناء الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩م - ١٩٤٥م)^(٢٥) وبعدها ... ولم تطل حيرتهم او تتفاهم ازمتهن اذ ان المستعربين من ابناء العروبة ومن تلامذة الغرب الذين تخرجوا من جامعاتهم ومعاهدهم التي انشأت في عدد من الاقطار العربية او اولئك الذين اكملوا دراساتهم في جامعات الغرب فكانو وسيلة الغرب وعينه التي ترى ما لا يروونه يقينا لم تكن الدعوة التي اطلقها الغرب الى ترك الماضي والتخلف، الا قناعا استعماريًا للدعوة الى ترك المنحى العربي القراني الاسلامي العقائدي، اذ كانت الدعوة البديلة الى المستقبل اتباع المنحى الاوربي - الامريكي في الثقافة ومواجهة الحياة، على ان تلك الدعوة لم تكن الا اعلاناً عن خروج الثقافة العربية من دائرتها او اصلها العربي الاسلامي وصبغها بلون توراتي - صليبي غريب عنها^(٢٦). وهذه الفكرة هي التي تبناها بعض ابناء العروبة الذين اصطلحوا بـ(المستعربين) امثال: مارون غصن وسعيد عقل و لويس عوض واسكندر معلوف واسعد داغر وائيس فريحة وقاسم امين واحمد لطفي السيد وسلامة موسى وداود جليبي وابراهيم اليازجي^(٢٧)، وسواهم كثير.

وعن الاستغراب يقول الاستاذ الراحل مدني صالح (طيب الله ثراه): (كلا لم يكن الاستغراب تلمذة افلاطونية سقراطية على اكاديميين اورو - امريكيين، يعتز بهم السقراطية والافلاطونيون والآخرين من الجهادة العباقرة الاساطين ... بل كانت تلمذة كسيفة تافهة مغشوشة في الزوايا الاستشرافية العقيمة، والاستشراق الملائني العقيم بلا استتارة من طريقة ومنهج الا الطريقة المنهجية اللعينة التي يجعلون بها الثقافة الساقطة سدا صاداً مانعا بين المتقدمين والمتخلفين...) (٢٨) ... سقنا هذه النص على طوله لانه شهادة من عرف الغرب عن كذب، وخبرهم عن قرب، بعد ان نال شهادته العليا من احدى جامعاتهم، لكنه لم يسقط بفخ المغريات الذي نصبوه له ولغيره من الدارسيين العرب هناك.

مما تقدم يتضح إنه ليس للاستغراب هوية وجود مستقلة تؤهله لاداء دور مستقل عن املاءات الاخر ونفوذه وسطوته، بل يبدو ودعائه قشريا وذيليا ومنقاداً بصورة عشوائية ومبعثرة، وبحاجة الى الرشد والتقويم ولكن تبقى فسحة الامل امام العرب اليوم واسعة اذا ان فيهم افرادا يتمتعون بعبقرية علمية ملحوظة في داخل البلاد العربية وفي المهاجر الغربية (٢٩) في الغرب الادنى الاوربي والغرب الاقصى الامريكي وينشردون بمستقبل زاهر في العلوم الصرفة اوصنوها العلوم الانسانية اذ ما وجهوا بطريقة منهجية صحيحة للعودة بامتهم الى جادة الطريق القويم

٣- وسائل الاستغراب

هناك وسائل كثيرة واساليب مختلفة لاعداد المستغربين بالكيفية التي يراها الاخر مناسبة خدمة لمصالحه واغراضه واهدافه ومنها اسلوب المنح الدراسية والبعثات العلمية الرائجة بضاعته هذه الايام ... ويعود اسلوب المنح الدراسية الى عصور موعلة في القدم اذ كان فراعنة مصر يجلبون ابناء الملوك والامراء والاعيان الى مصر ليتعلموا بها ويتلقوا العلم فيها^(٣٠) واثناء مدة التعليم التي تستغرق احيانا عشرة اعوام يكون من السهل التأثير على عقلية الطالب وتفكيره وبالتالي يتحول في غالب الاحيان الى مواطن موال للبلد الذي درس فيه فلا تكاد تنقضي مدة دراسته حتى يتحول الى شخص مزدوج الجنسية، وقد تكون جنسيته العقلية التي اكتسبها اثناء دراسته الراجحة الكفة على جنسيته الاصلية^(٣١) وكثير من هؤلاء الطلبة كانوا يعدون لتولي مراكز قيادية في بلدانهم حتى اذا دانت لهم السلطة كانوا اشد وطأة على ابناء جلدتهم من الدولة التي تعلموا بها انصياعا وتملقا لها، وان كانت ضد امانى شعوبهم وتطلعاتها^(٣٢). وعلى ذلك السياق درجت الامبراطوريات اللاحقة كالاغريق والرومان والفرس اذ حققوا استقرارا في البلدان التي غزوها وتلك المجاورة لهم لعوامل جغرافية وكانت عاملا مساعدا في حروبهم المستمرة ضد الاخرين.

وفي تاريخنا المعاصر لا يزال اسلوب الاستعمار الفكري قائما، وان اختلفت القوالب والاشكال، الا ان الاهداف الموروثة تبقى كما هي لا تتغير ولاسيما الولايات المتحدة الامريكية، فدول الارث الاستعماري الحديث تعمد الى بذل المنح الدراسية لطلبة الاقطار العربية فتأخذ هذه المنح بشكل الاعانات المادية والمعنوية. ولا يكاد الطالب العربي يصل الارض الامريكية حتى يجد في انتظاره حياة جديدة تنأى عن الحياة التي الفها في بلده، ثم ينبهر بمظهر الحرية المنفتح، والازدهار العمراني والتقني

والإلكتروني، ومستوى المعيشة العالي حتى تفعل هذه المظاهر فعلها في دخيلة الطالب الشاب اليافع^(٣٣)، الذي سأم نظام الحياة الممل وربما المتخلف في بلاده. وإمام هذا الاندهاش يكون أساتذة متخصصون في علم النفس العام وعلم النفس التربوي، متهيئون لغسل دماغه وتوجيهه الذي يناسب مصالح البلد (المعلم) استنادا الى مذهب البراغماتية العملي والنفعي الذي ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية نفسها مع بدايات القرن العشرين، وساعد على نشأته انتشار استخدام الطريقة العلمية وما ترتب عليها من نفع عملي وتقدم صناعي على يد مؤسس البراغماتية تشارلز بيرس (١٨٣٩م - ١٩١٤م)^(٣٤)، ثم طوره وليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠م)^(٣٥) الذي قرر إن معيار الحقيقة ليس الحكم العقلي بل السلوكي العملي النافع بل السلوك المترتب عليه^(٣٦). وبهذه الرؤيا تؤدي البرامج الدراسية، والاختلاط الطلابي والانفتاح على الحياة الجديدة الدور الأبرز في نزع الجذور الأولى التي تربط الطالب بوطنه الام نفسيا وعمليا، وتستطيع المغريات الكثيرة في المجتمع الجديد ولا سيما حياة الشباب الخالية من العقد والكبت والمخبر السري ان تربطه بقوة الى الحياة الجديدة. وقبل الانتهاء من مدة دراسته او في نهايتها يجد نفسه وقد انحلت عنه الروابط والقيم التي نشأ عليها - ما خلا القليل منهم طبعاً - فلا يلبث تحت تأثير الاغراءات وبرامج الترغيب في حياة الغرب ان يبتكر لوطنه واصوله^(٣٧)، ويفضل البقاء في البلد الغريب على العودة الى بلاده التي تكون بامس الحاجة الى علمه واجتهاده وجهده ... وهنالك امثلة على ذلك من الماضي القريب .. فمنذ العالم ١٩٥٩م وحتى العام ١٩٦٥م رفض اكثر من الف طالب عربي انهموا دراستهم في امريكا العودة الى بلدانهم وفضلوا البقاء في البلد الذي تلقوا دراساتهم العالية فيه، ومن بين هؤلاء اكثر من الف طالب مصري، كانت مصر في اشد الحاجة الى تخصصاتهم وعلومهم في مسيرتها التنموية^(٣٨)، والعربي او المسلم في حساب الغرب

يبدو كأنه شخص واحد ولد في عهد البعثة المحمدية، وهو بعينه يولد ويعاد ميلاده من جيل الى جيل ومن امة الى امة^(٣٩).

وهذا المصير المفجع حتمي، نتيجة لعمليات غسيل المخ الذي تقوم به اجهزة مخابراتية متخصصة لهؤلاء الطلبة عن طريق المطبوعات والنشرات والندوات الثقافية واحيانا الليالي الحمراء، حتى يستسلم الشاب الشرقي في نهاية الامر لهذه الاساليب، ومن ثم يصبح اداة طيعة في ايدي الاغراب ... ونلاحظ ان الكثير من المستغربين العرب الذين تاثروا باتجاهات المستشرقين الغربية ولاسيما اولئك الذين درسوا بالغرب ثم عادوا الى بلادهم كانوا تلامذة اوفياء الى اساتذتهم المستشرقين اذ دافعوا عن الافكار والرؤى الاستشراقية، واكدوا ولائهم الى منهجهم الغربي في نظرتهم الى الشرق، وهم ماسموا بالمستشرقين^(٤٠). وكانت افكار هؤلاء ثمرة للمنهج الغربي في نظرتهم الى الشرق كما هو الحال مع طه حسين ولويس عوض وسلامة موسى وغيرهم^(٤١)، فقد انابوا عن الغرب في اداء مهمات المستشرقين في البلاد العربية^(٤٢).

فالبعثات الاولى للمستغربين العرب - ان صح التعبير - لجامعات الغرب كالسربون وبرلين واكسفورد وكيمبردج، وسواها، ابتدأت منذ النصف الاول للقرن التاسع عشر، ثم استمرت باطراد الى يومنا هذا، وهذه البعثات شكلت النواة الاولى للاستغراب في تقديرنا بدأت من رفاة رافع الطهطاوي وانتهاء باساتذة الجامعات المعاصرين، مروراً باحمد لطفي السيد وطه حسين ومحمد مندور^(٤٣). ان النتائج التي تمخضت عن دراسات هؤلاء كانت تمثل حضوراً مقنعاً للغرب في صورة رسمها الشرقي عن الغرب، وكما يريد الغرب، حتى بات من المؤكد انهم غير قادرين على دراسة الغرب من خارجه وعلى دراسة الشرق من داخله، وكان على الاخر (الغرب) ان يسهم في ازالة المعوقات التي تعرقل عمل المستغربين لا ان يكرسها ويغذيها ... فمثلاً اذا اراد عربي ان يفهم شيئاً عن الثقافة الغربية لن يجد لديه الخبير العربي

المتخصص في دراسة الغرب (غالبا) مما يضطره الى الذهاب الى الخبير الغربي، لان الفارق هنا ليس بسيطا ويعود لاعتبارات ايديولوجية وسياسية، لا الى اعتبارات تاريخية وحضارية كما يروج الغرب ويقول^(٤٤). وطبعا هنالك وسائل اخرى ياتي الاعلام بانواعه في مقدمها، لا مجال لذكرها في هذا البحث.

٤- الاستغراب والواقع

يقول يانوش دانيتسكي: هكذا هم العرب قرروا الى حد بعيد شكل الثقافة الاوربية وبعدها صاروا منسيين، ثم جرت محاولة مدروسة لمحو اثار كل ما هو عربي من اجل ان لا تتعرض مشاعر المسيحيين للاذى^(٤٥).

لقد ظهرت في صقلية (بالرمو) واسبانيا (توليدو) الى مراكز الترجمة من العربية الى اللاتينية (لغة اوربا انذاك) بشكل مدهش، وهذا الانبهار انعكس في مجلدات علوم الطب والفلسفة والفلك والرياضيات، وباختصار كان الاتصال الفيزيقي قائما بين العالمين منذ القدم، الا ان النقاوم الروحي كان مفقودا، اذ لم يكن بمقدور الاوربيين الاعتراف بتفوق العرب المسلمين الثقافي، كذلك لم ير العرب في الاوربيين الا اجلافا غير متمدنين^(٤٦)... ولم تتوقف المقارنة بين العقل العربي والعقل الغربي، بل استمرت نزعة العرق المتفوق في دراسات المستشرقين حتى في المجال الديني، والاسلام قد اخذ من الديانات الاخرى محتواه بزعمهم ولا سيما اليهودية والنصرانية^(٤٧)، فمنذ عصر التنوير الاوربي كان الفكر الغربي يعيش في عالم لا تشاركه في صنعه الحضارات الاخرى، وعموما كانت كتابات المستشرقين تنطلق من فرضية مفادها الاساس شرق متخلف مقابل غرب متقدم^(٤٨) اي ان الغرب منطلق كل شئ، ومن اجل تجنب صرامة المنطق العقلاني بهدف اصطناع منهجين احدهما للحضارة الشرقية والاخر للحضارة الغربية لان الرؤية الايدولوجية للغرب عن الشرق لم تتبدل بصورة نهائية، بل تم فقط تغيير بعض بنيتها لتقديم رؤية ايديولوجية جديدة تحافظ

على العناصر الاساسية في البنية الايديولوجية القديمة، والتي تبقي الفكر الغربي ينطلق من فرضية تجعل من الغرب مركزا للتاريخ والحضارة والابداع العقلائي الفلسفي والعلمي، اذ تجد لدى الفيلسوف الوجودي المعاصر هيدغر تعبيراً صريحاً ومركزاً عن جوهر المركزية الاوربية، فهو يرى ان عبارة الفلسفة الغربية تحصيل حاصل وتكرار لا معنى له فلا وجود لفلسفة اخرى غيرها^(٤٩) فكل المحاولات والحركات لابراز الشخصية القومية العربية منذ حوالي قرن لم تكن من شأنها ان تغير من نظرة الفكر الغربي الى تاريخ الثقافة والعلم والحضارة، المبني على المركزية الاوربية، فيقرر ما كان الفكر الغربي يتقدم في التيار الحضاري، كان ذلك مصحوباً لديه بشعورين اولهما ان اكتمال البناء الحضاري من الناحية المادية لا يمكن ان يكون الا ضمن هيمنة على العالم الاخر، وضرورة الهيمنة المادية تصبح ارادة في نقل الثقافة والحضارة الى العالم الاخر، اما الشعور الثاني الذي واكب البناء الحضاري في اوربا فانه كان يتعلق بالوعي الذي تكون خلال ذلك الغرب بذاته، ومضمون هذا الوعي ان اوربا مركز للحضارة والثقافة والعقل والتاريخ .. ضمن هذه الايديولوجية يصبح كل التاريخ الثقافي والحضاري للعالم منطبقاً على التاريخ الاوربي حسب^(٥٠).

ان الدراسات التي اقامها المستشرقون ليس هناك ما يسوغ قيامها او انجازها من قبل الشرق ازاء الغرب، اوربا - امريكا او السعي الى الارتكاز على نقاط حيوية تؤدي الى السيطرة الشرقية على الغرب فمنذ القرن السابع عشر الميلادي وربما قبل ذلك، كان الشرق مجالاً للاستيطان، وكانت الدراسات الاستشراقية تعد في الغالب من اجل معرفة كيف يمكن احتلال الشرق لصالح الغرب، فنانبليون عندما غزا مصر عام ١٧٩٨م على سبيل المثال لم يكن ذلك من اجل نشر الحضارة كما كان يقال انذاك، بل لازاحة القوى الكبرى الاخرى المنافسة واستغلال مصر كنقطة انطلاق نحو مشاريع اخرى^(٥١)، في حين لم ينظر الشرق الى الغرب مطلقاً كمكان يمكن استغلاله او يمكن شن حروب عليه على غرار الحروب الصليبية. والدراسات الاستشراقية في بداياتها

جاءت مصاحبة للهيمنة والغزو الاوربي، في حين إن الدراسات الاستغرابية لم يتوافر لها مثل هذه الابعاد الاستعمارية نظريا او عمليا، فالاستشراق بدأ بداية عسكرية - تجارية، ثم تجاوز الاطار العسكري الى مجالات اخرى، اما بالنسبة للاستغراب فقد اخذ شكل الرحلات والانبهار بالغرب من خلال بعض الاعمال الادبية^(٥٢). مثل اعمال طه حسين وتوفيق الحكيم، فضلا عن مؤلفات اخرى لبعض المؤلفين والرحالة العرب، وكانت هذه الاعمال الاستغرابية - إن صح التعبير - تعكس في بداياتها نوعا من الانبهار والجانبية ولكن سرعان ما بدا هذا الانبهار ينحسر باتجاه الاستشعار بخطر الغرب ومعاول تهديمهم، ولم يعد الغرب كما وصفه الطهطاوي منبعا للمعرفة بل صار تدريجيا الخطر الداهم^(٥٣) فالدعوة الى الاستغراب او لدراسة الغرب متجدده، ففي منتصف القرن العشرين اشار المستشرق الالماني رودى بارت الى اهمية إن يتجه العالم الاسلامي لدراسة الغرب اسوة بما يفعله الغرب في دراساته للشرق^(٥٤). ومعرفة العرب هذه تنفي اتهامات المستشرقين للعرب ونظرتهم الدونية. فقد اعترف الجميع بفضل العرب قديما في اىصال اعمال الفلاسفة والعلماء القدماء واثارهم للعالم الحديث^(٥٥) وهم اليوم غير عاجزين عن الابداع والابتكار والتطور. والاستغراب الحقيقي ذلك الذي يجري بمنأى عن الاستعمار المباشر او الغير مباشر حتى يكون جدير بثقة الناس في امهم الاغلب فالظرف الذي جرى به الاستشراق كان ملائما للمستشرقين من الغرب وهو لم يكن كذلك للمستغربين بسبب نزعة التسلط الغربي ومن العسير اطلاق نفس الاحكام على كلاهما فليس القاتل كالضحية ... وظاهرة عدم وجود دراسات شرقية عن الغرب بمستوى دراسة الغرب عن الشرق او مقارنة منها لاتدخل ضمن سياق عدم مبالاة الشرقيين في ذلك بل تحكمها العلاقة الغير متناظرة والغير متوازنة بين الشرق والغرب في مزاعم الاخر واحتكارته التي تتجاوز الماديات باتجاه المعرفة والعلوم والافكار تفرضها نزعة عنصرية فوقية من الشمال الى الجنوب حتى تبدوا المقارنة ظالمة وغير عادلة بمعنى اوضح إن ممارسات الاستعمار الغربي لاتقتصر على الجوانب العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بل ان خطرهما يكمن في الجوانب العلمية والمعرفية والثقافية واذا كان ثمة سؤال يدور عن أسباب عدم

وجود استغراب متميز يفرض نفسه مقابل الاستشراق المتطور، فان الاجابة على ذلك مفادها ان الاستعمار الغربي ترك عموم بلاد المشرق ولا سيما الارض العربية في حالة شلل تام، وعجز بنيوي على مختلف المجالات والصعد، واعاب على العرب حتى تاريخهم وحضاراتهم وثقافتهم، واستهتر مستهزأً بكل القيم الروحية والعقيدية^(٥٦)، وغل ايدي المتطلعين الى سبر اغوار العلوم وكبلهم بمزاعم التخلف واباطيل الجهل، فوضعوا الفوراق والفواصل بين الشعوب، وفرقوا امة العرب الى دويلات، وابعدهم عن جذورهم الاصيلية وبنوا الافكار المشوشة واهموهم بقدراتهم^(٥٧) وكننتيجة لذلك تمخضت هذه التداعيات عن كم هائل من الباحثين العرب والشرقيين، انساقو بحكم التراث الاستعماري، وبحكم تكوينهم اللغوية والثقافي فصاروا باحثيين غربيين على غرار المستشرقين او في عموم المستويات اللغوية والمنهجية، وامتد ذلك الى الشعور والمشاعر وبالتالي فهم عاجزون عن تقديم صور شرقية عن الغرب، وما يقدمونه من دراسات لا يمكن ان يكون رؤية الشرق للغرب بل رؤية الغرب لذاته، لكن بصورة شاحبة ومشوهة^(٥٨).

هذا هو واقع الاستغراب حالياً، لا يأصل لنزعة استقلالية تقيه الشبهات وترتقي به فوق الشكوك، وتأخذ به بعيدا عن التقليد والانقياد، والاستلام امام املاءات الاخر وشروطه.

٥- الاستغراب المفترض

جاء في الحديث الشريف: (لايكن احدكم امعة يقول: انا مع الناس إن احسن الناس احسنت، وان اساءوا اسات، ولكن وطنوا انفسكم إن احسن الناس إن يحسنوا، وان اساءوا إن تتجنبوا اساءاتهم)^(٥٩) اذ إن اصالة العرب وحضارتهم العريقة ينبغي إن تحصنهم ضد الانقياد العشوائي والتقليد الاعمى والمراوحة في نفس المكان، وتجعل هويتهم الروحية والمادية بمنأى عن الثقافة المغشوشة والانجرار الى الزويا المظلمة لقد كان للحضارة العربية من القوة والمنعة ماجعلها تبقى على الدهر، وتخلد الى الابد^(٦٠)، وهي لازالت تحتفظ بسر تفوقها ومفاتيح تطورها، لفك طلاس العلوم والثقافة، ومواكبة العصر بكل تقنياته واسراره والان يبدوا إن البعض اغواه التشبه بالآخر وثقافته التي ليست لها أي جذور او فائدة سوا طمس القيم الاصلية بثقافة بتراء ناقصة يكون الاستغراب وعاء مفترض لمحتواها وبما إن المدنية الغربية هي المتفوقة صناعيا وعمليا، فمن الواجب على العرب إن يعرفوها معرفة وثيقة وعلمية بعيدا عن الرحلات والبعثات العلمية العشوائية والتي تحمل من المخاطر اضعاف ماتحملة من الامان، والاعتماد على نوعية متتورة من طلبة العلم، يعون دورهم في بناء بلدانهم ومواكبة الركب المتقدم باستقلالية الهوية المعنوية والثقافية فكما إن الغرب عندما بدء نهضته العلمية والفكرية والثقافية توجه الى الشرق ولاسيما الارض العربية، وافاد من معطيات الحضارة العربية الاسلامية بدءا من التفكير العلمي والمنهج العلمي الى مختلف معطيات الحضارة العربية فان المنطق يفرض على طلبة العلم العرب إن يحثوا الخطي لدراسة الغرب وينطلقوا لادراك سبب تأخرهم وتقدم الآخر وهذه الدراسة ينبغي إن تتم وفق اسس رصينة للاستفادة من معطيات الحضارة الغربية المعاصر فيما لايتعارض مع الاسس الاخلاقية والقيمية للحضارة العربية الاسلامية واذا ما توافرت هذه الشروط فان من المتوقع إن يصبح الاستغراب علما مستقلا في ضوء النهضة العلمية والخطوات المدروسة التي تتخذها البلدان العربية في مجالات العلوم وفي مقدمتها التكنولوجيا والتقنية الحديثة مما يوجب على مراكز البحث العلمي و وزارات التعليم العالي في العالم العربي اتخاذ الاجراءات المدروسة بعناية فائقة وانشاء اقسام

علمية تدرس الغرب دراسة علمية ميدانية تخصصية وعلى مختلف المجالات المتاحة. ولا يبدو الامر مستحيلا او صعبا اذا ما عرفنا ان الحضارة العربية الاسلامية استوعبت شتى الحضارات^(٦١) على اثر الفتوحات العربية الاسلامية الكبرى يقول الدكتور حسن حنفي في كتابه مقدمة في علم الاستغراب: (فك عقدة النقص التاريخية في علاقة الانا بالآخر والقضاء على موكب العظمة لدى الآخر بتحوله من ذات دارس الى موضوع مدروس والقضاء على مركب النقص لدى الانا بتحويله من موضوع مدروس الى ذات دارس ...)^(٦٢).

وفي دراسة الغرب لا بد من التخطيط الفعال في هذه القضية اذا اردنا النجاح ومعرفة الغرب والافادة من المعطيات الايجابية للحضارة الغربية إذ يحتاج هذا الجهد الى عشرات اللجان في العديد من الجامعات العربية لوضع الخطط المناسبة لهذه الدراسات^(٦٣) ويفضل ان تكون تحت غطاء جامعة الدول العربية وتفضل من قبل الاقطار العربية الاعضاء لتكون العملية مركزية وتعم فائدتها كل البلدان العربية.

وفي العالم العربي يكاد لا ينقصنا دراسة اللغات الاوربية موضوعة ((الاستغراب))، ولكن تنقصنا الحاجة الى من له المام بهذه اللغات للوصول بالبحث والدراسة الى مستوى رفيع في التمكن من اللغات الغربية ومن ثم الدراسة في الجامعات الغربية والتركيز في قضايا الغرب وليس دراسة موضوعات العالم العربي^(٦٤) ...

والحاجة ماسة الى من يتعمق في علم الاجتماع الغربي ليعرف تلك المجتمعات عن كثب وتلك مسألة لم تعد صعبة المنال بوجود الكثير من الاوربيين والامريكيين من اصول عربية يستطيعون فعل ذلك والتعمق في البحث العلمي الرصين والتوصل الى معلومات في غاية الاهمية والحيوية بالنسبة للبلاد العربية.

ودراسة العرب للغرب ستكون مختلفة بالتأكيد عن دراسة الغرب للشرق وذلك ان الغرب بدا الاستشراق فيه منطلقا من توجيهات واوامر البابوات لمعرفة سر قوة المسلمين وتفوقهم وانتشار الاسلام في البلاد التي كانت خاضعة للمسيحية^(٦٥)، اذ كانت هذه الدراسة لهدفين رئيسين احدهما تغيير النصارى من الاسلام والثاني اعداد بعض رجال الكنيسة للقيام بالتنصير في البلاد العربية والاسلامية^(٦٦)

الخلاصة

بعد ان استعرضنا الصفحات السابقة للاستغراب وهوية الوجود بشكل تاريخي وتحليلي تبين ماياتي:

ان الاستغراب لا يمتلك هوية وجود مستقلة تؤهله لاداء دوره المفترض في مجمل حياة المجتمعات العربية، وهو لا يزال وليدا غير ناضجا يتارجح بين الماهية والمعارف الاخرى كالاستشراق، ولا تزال الوسائل والاساليب التقليدية تقيد حركته بل تجعله مشلولاً لا يقوى على الابداع والابتكار لان الاستعمار اراده كما رسم له، وليس كما يريد العرب وبلدانهم المتعددة وتبين ان صورة الاستغراب الضبابية وغير الواضحة بحاجة الى وقفة جادة من الجهات المعنية او ذات الاختصاص ولا سيما مراكز البحث العلمي، ووزارات التعليم العالي في البلاد العربية ليؤدي دوره بالشكل المطلوب والصحيح وبما يخدم عجلة التطور العلمي والازدهار الحضاري ... واكد البحث على خطورة البعثات او الرحلات العلمية العشوائية وغير المدروسة الى مختلف بلدان الغرب اوربا - امريكا والتي في غالب الاحيان تاتي نتائجها بصورة عكسية او دون فائدة تذكر .

وتبين كذلك ان الاستغراب لا ياصل لنزعة استقلالية تقيه الشكوك والشبهات، بسبب املاءات الاخر او اوامره التي لاتراع المصلحة الوطنية للشعب العربي ويفترض ان يكون هنالك استغراب يتواءم وعجلة التقدم العلمي والتقني الذي يعيشه العالم للنهوض بالاجيال القادمة الى مستوى الطموح ...

فهل نشهد استغراباً مستقلاً ذا هوية وطنية عربية واضحة في المستقبل

القريب؟!!

الهوامش

- (١) سورة الرحمن (الاية ١٧)
- (٢) ابن منظور، ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) لسان العرب، (بيروت، دار صادر، ١٩٩٧م)، ج ٥، ص ١٧
- (٣) ابن منظور، لسان العرب، ج ٥، ص ١٧
- (٤) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٨
- (٥) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٩
- (٦) المصدر نفسه، ج ٥، ص ١٨
- (٧) مطبقاني، مازن صلاح، متى ينشأ علم الاستغراب، (الرياض، وحدة دراسات العالم الغربي بمركز الملك فيصل، د.ت)، ص ٣
- (٨) سعيد ادورد، الاستشراق، ترجمة كمال ابودييب، (بيروت، دار الحكمة، ١٩٨١)، ص ٢١.
- (٩) سورة القصص، (الاية ٣).
- (١٠) سورة القصص، (الاية ٤٥).
- (١١) سورة القمر، (الاية ٩).
- (١٢) سورة القمر، (الاية ٢٣).
- (١٣) سورة الروم، (الاياتان: ٢، ٣).
- (١٤) الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل الملوك. تحقيق: محمد ابوالفضل ابراهيم، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٥م) ج ٣، ص ٦١٣ وما بعدها

- (١٥) ينظر: المسعودي، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ) التتبيه والاشراف، (بيروت، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١ م).
- (١٦) ينظر: البيروني، ابو الريحان محمد بن احمد (ت ٤٤٠ هـ)، الاثار الباقية عن القرون الخالية، تحقيق: ادورد سخاو، (حيدر اباد، المطبعة العثمانية، د. ت).
- (١٧) ينظر: الادريسي، الشريف ابو عبدالله محمد (ت ٥٨٨ هـ)، صفة الاندلس - ماخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق (ليدن، مطبعة برييل، ١٨٦٦).
- (١٨) ينظر ياقوت الحموي، شهاب الدين ابو عبدالله (ت ٦٢٦ هـ)، معجم البلدان، (بيروت دار صادر، ١٩٥٧ م).
- (١٩) صالح، هاشم، المثقفون العرب بين الاستشراق والاستغراب، جريدة الشرق الاوسط، العدد ١٠٦١٤، الخميس ١١ ذو الحجة ١٤٢٨ هـ، ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٧ م)، ص: الرأي.
- (٢٠) قاسم، قاسم عبده، ماهية الحروب الصليبية، (الكويت، عالم المعرفة، ١٩٩٠ م)، ص ٧ وما بعدها.
- (٢١) قاسم، ماهية الحروب الصليبية، ص ٢١٩
- (٢٢) ينظر: السيوطي جلال الدين عبدالرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ) تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبالحמיד (بيروت، دار الجيل ١٤٠٨ هـ) ص ٥٣٣ وما بعدها
- (٢٣) الديراوي عمر، الحرب العالمية الاولى (بيروت دار العلم للملايين ١٩٨١ م) ص ١١ وما بعدها
- (٢٤) الحويك الياس طنوس تاريخ نابليون الاول (بيروت، دار الهلال ١٩٨١ م) ج ١ ص ٢٧

- (٢٥) لاوند رمضان الحرب العالمية الثانية (بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٢م) ط ٩
ص ٢٤ وما بعدها
- (٢٦) صالح مدني بعد الطوفان (بغداد دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٩٩م) ص ١٥٢
- (٢٧) العبيدي رشيد الحركة اللاشتراكية مراميها واغراضها (بغداد انوار مجلة ٢٠٠٣
م) ص ٩٦
- (٢٨) صالح، مدني، بعد الطوفان ص ١٥١
- (٢٩) فروخ، عمر عبقرية العرب في العلم والفلسفة (بيروت المكتبة العصرية ١٤٠٥
هـ) ص ١٧
- (٣٠) القصاص، فؤاد، امريكا والغزو الفكري لمنطة الشرق الاوسط (بيروت دار
الجيب د.ت) ص ٦٩
- (٣١) القصاص، امريكا والغزو الفكري ص ٧٠
- (٣٢) المصدر السابق ص ٧٠
- (٣٣) المصدر نفسه ص ٧١
- (٣٤) محمد، سماح رافع، المذاهب الفلسفية المعاصرة (القاهرة، مكتبة مدبولي،
١٩٧٣ م) ص ٥١
- (٣٥) سماح رافع المذاهب الفلسفية ص ٥٤
- (٣٦) محمود، زكي نجيب، من زاوية فلسفية (بيروت، دار الشروط، ١٩٧٩م)
ص ٢١٢
- (٣٧) العقاد، عباس محمود، الاسلام والحضار الانسانية (بيروت، المكتبة العصرية
د.ت) ص ٨٤
- (٣٨) القصاص، امريكا والغزو، ص ٧١
- (٣٩) العقاد، الاسلام والحضارة الانسانية، ص ٨٤

- (٤٠) رسول، رسول محمد، الاسلام والغرب (بيروت، دار المعرفة د.ت) ص ١١
- (٤١) الكيلاني، رعد شمس الدين الاسلام والاستشراق (بغداد، مركز البحوث
الاسلامية ٢٠٠٦م) ص ٣١
- (٤٢) الكيلاني، الاسلام والاستشراق ص ٣١
- (٤٣) صالح، المثقفون العرب جريدة الشرق الاوسط صفحة الراي
- (٤٤) جاكسون ريجرد حوار مع فرنسيين ترجموا اثار عربية ضمن كتاب حوار
الاستشراق ص ٢٣٢
- (٤٥) دانيتيسكي، يانوش الاستشراق (بغداد دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٩١م)
ص ٧٢
- (٤٦) يانوش، الاستشراق ص ١٧٢.
- (٤٧) الظالمي، حامد ناصر، بنية اللغة العربية في التيار المعادي للعقل العربي
(بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة) ص ٤٤.
- (٤٨) شعيب، علي، الاستشراق وكتابة التاريخ، (بيروت، مجلة الفكر العربي
المعاصر، ك٢، ١٩٩٠). ص ٣٣.
- (٤٩) السقاف ابوبكر ملاحضة نقدية حول المركزية الاوربية (مجلة الحكمة، عدد
٤٥، ت٢، ١٩٩٧م) ص ١٨
- (٥٠) وقيدي، محمد، العلوم الانسانية والايديولوجيا (بيروت، دار الطليعة، ١٩٩٣)
ص ١٤٢، ١٤٣
- (٥١) طومش، ندى، حوار الاستشراق
- (٥٢) المرجع نفسه ص ١٧٥
- (٥٣) المرجع نفسه، ص ١٧٦

- (٥٤) بارت، رودى، الدراسات العربية الاسلامية في الجامعات اللامانيا (بيروت، دار الطليعية د.ت) ص ٥٣
- (٥٥) هونكا، زيغرد، شمس العرب تسطوا على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال سوقى (بيروت، المكتب التجاري ١٩٦٤م) ص ٣٩٩
- (٥٦) العبيدي الحركة الاستشارية ص ٣١
- (٥٧) المرجع نفسه ص ٣١
- (٥٨) الشيخ احمد، حوار الاستتراق (القاهرة، المركز العربي للدراسات الغربية ١٩٩٩م) ص ٩
- (٥٩) البخاري، ابو عبدالله محمد بن اسماعيل (ت ٢٥٦هـ) صحيح البخاري (بيروت، دار الهلال د. ت) ص ١٨٩
- (٦٠) معروف ناجي، اصلة الحضارة العربية (بيروت، دار الثقافة ١٩٧٥م) ص ٨
- (٦١) المطبقاني منى ينشأ الاستغراب ص ٢
- (٦٢) المرجع نفسه ص ٣
- (٦٣) المرجع نفسه ص ٣
- (٦٤) نفسه ص ٣
- (٦٥) نفسه ص ٣
- (٦٦) نفسه ص ٣
- (٦٧) الانفال من (الاية ٦٠)
- (٦٨) مطبقاني، متى ينشأ علم الاستغراب، ص ٤
- (٦٩) المائدة من (الاية ٨)